احمد عبود باشا

لفؤاد شكري

ثمرة واحدة من نخيل مصر ، أو عنبة واحدة من كرومها ، أو حبة واحدة من برها ، أو ريحانة واحدة من رياحينها ، دليل كل الدليل على ان التربة خصيبة ، خيرة ، تؤتي على حسن التعهد ما تنطوي عليها طيبتها من ثمر وزهر

وهذا رجل من رجالات مصر الأفذاذ قد شق طريقه الى الذروة ، وضرب المثل الصادق على ذكاء المصري ، واستعداده الفطري لجلائل الأمور ، ونهض مثالاً فريداً نادراً على النبوغ القوي الأخاذ بسمة اطلاعه ، وغزير مادته ، ونمي به حضرة صاحب السعادة احمد عبود باشا . وعبود باشا مثال الشخصية الوقور المحترمة السريّة البادية على اكملها في المظهر والكياسة والتزام المنطق في البحث ، وأدب الجدل والحوار ، ولطف المدخل على النفوس . يجانب ثقافة ممتازة ، واطلاع واسع وخبرة تلازمهُ في كل الظروف ، وهو الى هذا كله رقيق الحاشية ، حر السجايا ، سامي المكانة عند رجال المال بارز في الندوات والمحافل العالية

تقابله فتلقى رجلاً من الطراز الأول ، ناهز الخمسين من عمره ، اسمر اللون معتدل القامة ، متواضع السمت ، كثير الحركة ، تبدو عليه مخايل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون ان يتكلم ، على وجهه الباسم الهدوء الحبيب والرقة والحزم معاً يحدثك في صوت هادىء ، وعبارات سهلة ، فيهرك بوفرة معلوماته ، لأنهُ دائم الاطلاع على الحركات الفكرية في العالم ، وهو يعيش مع اسرته عيشة غربية المظهر ، ولكنها شرقية بكل ما فيها من محافظة على التقاليد

ولد عبود باشا في القاهرة سنة ١٨٨٩ وتلقى علومهُ الابتدائية والثانوية في مدارسها . وقد كان حقًّا ان تهادى طفولته في أفانين من التربية الصحيحة فحرص على ان يشبع رغبة نفسه في دراسة العلوم الهندسية فسافر الى انجلترا وانتظم في سلك طلبة جامعة جلاسجو الشهيرة وأحرز شهادتها متفوقاً ثم لم يمض بعد ذلك غير قليل من الزمن حتى فتحت حياته للناس جميعاً فآثر الأعمال الحرة حيث اضفى عليه النبوغ حلة من باهة الصيت في مطلع شبابه . وقد صرف اهتمامه واستخدم مواهبه في الفنون الهندسية فأحرز في الزمن القصير سمعة طيبة ارتفع بها اسمه . وطارت شهرته ، وكان طبيعيًّا ان تستعين الحكومة المصرية في ذلك العهد بكفاية هذا المهندس الشاب

حضرة صاحب السعادة احمد عبود باشا

فاختارته وزارة النافعة لقيام باعمال هندسية غاية في الدقة فقام بهذه المهمة احسن قيام وقد كوفىء على نشاطه وما أبداه من مهارة بالنيشان العثماني الرابع وهو من النياشين العثمانية الرفيعة . ثم انعم عليه برتبة البكوية الممتازة . على ان نشاطه لم يقف عند هذا الحد فسافر الى العراق واشترك في أعمال الري الكبرى مع السر وليم ولكوكس الخبير العالمي حتى اذا أعلنت الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ اشترك في انشاء سكة حديد بغداد كذلك كان له السهم الأوفر في انشاء شبكة المواصلات بالسكة الحديدية في فلسطين وسوريا واختاره اللورد اللنبي بعد ذلك لانشاء طائفة من الجسور والدروب العسكرية في فلسطين وبذلك أصبح من اكبر مقاولي الجيش الانكليزي

وقد اتسعت أعمال عبود باشا وتشعبت بعد ذلك فانشأ عدة شركات صناعية في مصر وانكلترا وهذه الشركات تتولى انشاء السفن والسكك والجسور وهو الى هذا أكبر مساهم في شركة الأمبريوس العمومية بمصر وفي غيرها من الشركات الصناعية والهندسية هذا الى العمل الكبير الذي لعله أجل عنصر في أعمال عبود باشا وهو تصير شركة البواخر الخديوية بعد ان امتلك معظم أسهمها إذ كانت هذه الشركة في بداية أمرها شركة مصرية صميمة ولكنها انتقلت بعد ذلك الى أيدي الانكليز فما لبث عبود باشا ان اشتراها وأدخل عليها تحسينات جمة وسعى أخيراً في استصدار مرسوم ملكي بتسميتها « شركة خطوط البريد الفرعونية » وهذه الشركة من أقوى شركات الملاحة بما تملكه من الاوصفة والاحواض الجافة في الاسكندرية والسويس وتعتبر الورش التابعة لها كمدرسة لتعليم الشبان المصريين فن انشاء السفن . وقد كان طبيعيًّا ان تستوقف اعمال عبود باشا انظار ولاة الامور في مصر فأنعم عليه حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول برتبة الباشوية في سنة ١٩٣٠ تقديراً لمكانته السامية بين رجال الاعمال وعلى الرغم من أنه قد ناهز الخمسين من عمره لم يفارقه نشاط الشباب بل ان الانسان لا يستطيع ان يستخلص من أعماله غير دلائل القوة والحزم والميل الى الانشاء . فان المهمة التي أداها حتى الآن في مضمار الحياة العملية تدل على المواهب العظيمة التي أوتيها في سبيل تحقيق طائفة من المشروعات الحيوية . واذا أردنا أن نتكلم عن هذه المهمة فلابد لنا أن ندرك بادىء ذي بدء المصاعب التي تعترض في بعض الأحايين اولئك الرجال الذين يعملون للنهضة التجارية والصناعية وهو كما نظم سبيل شاق يحتاج دائماً الى ذكاء وتدبير وقوة على المغالبة . وقد تمثلت هذه المزايا كلها في شخصيته وفي هذه الدائرة سيظل اسم عبود باشا قدوة للنشء الذي يتحتم عليه ان يسير في الحركة الاقتصادية الى الأمام . فانما يقدار ما تخير الصعاب التي تكون عادة في الطريق المحفوفة بالمنافسة والدراك ونعني بها طريق التجارة والاقتصاد لنستطيع أن ندرك القوة العظيمة التي اختص بها رجل عصامي استطاع في وقت وجيز أن يحقق عدة من المشروعات لخير هذه البلاد ونهضتها ويضع في الوقت نفسه قواعد الاشتراك في العمل للمستقبل .

وبني بيده تلك القنطرة العظيمة التي ستمر عليها الدريات المصرية الى الشاطىء الجديد

ونرى أن مجرد التفكير في ان مصر بلد زراعي قبل كل شيء ، وان استعداداته التجارية لاتزال محدودة وان الاجانب مازالوا يحيطون حياة الاقتصاد والمال بسياج من المنافسة العنيفة يوحي الينا بمقدرة عبود باشا وذكائه وخبرته وما أوتي من قوة على مقاومة العوائق ، وان يكون له الشأن الذي تقتضيه الحالة لأحياء الاقتصاد الأهلي وان ينحو على المثل الاوربية في انشاء المشروعات التي تستحث النشاط العملي وتبعث في الوقت نفسه اتجاداً مندثرة . وبالاختصار استطاع ان يرسم طريقاً للعمل في تشييد مستقبل جليل يكون قدوة للجيل الجديد . ونحن اذا واجهنا مشروعات عبود باشا وطريقة اقتباسه الاساليب المستحدثة في الاعمال المالية الكبرى تطلع على علم واسع ودراية وخبرة . وجلي ان طبيعة العمل للثري والعمران لا تخلو من جفاف وانها تحتاج الى مرانة طويلة ومناضلة ومقدرة حقيقية على التحقيق ، وأن توفر ذلك من الحظوظ التي لا بد أن تتفق للرجل الطموح الذي يعمل للغايات النبيلة . وفي الحقيقة أن نجاح عبود باشا في هذه المهمة الحيوية وتائج علاقاته الواسعة بالاوربيين ولا سيما الانكليز قد عادت على البلاد بخير كثير وستظل جهوده في هذا السبيل جديرة بالتأمل وقدوة للجيل الحاضر ، وسفراً يحتوي على كثير من مبادىء العمران

وبعد ، فهذه الصفحة المجيدة من التاريخ الحديث لمصر تنسب كلها الى مجهودات زعماء الحركة الاقتصادية التي يعد من اتمها عبود باشا . ولا شك في ان مظاهر التقدم الاقتصادي التي تحيا بها هذه البلاد اليوم مدينة في الكثير الى صاحب ذلك الاسم والى الشركات التي اسسها وماثلها من صلة بحياة مصر المستقبلة من الناحية المادية . فان انشاء هذه الشركات وحده يمثل نظاماً من احدث نظم الحياة المادية في الغرب المتمدن وكان سعادته أراد ان يخلي مصر من عبء عظيم ، فاستطاع ان ينهض بتحقيق مهمة عظيمة لكي لا يهاب على الجيل الحاضر نقص النظام الاجتماعي

وصفوة القول ان من يلاحظ ماخلفهُ العصر القديم من آثار الخمول وعدم الاطمئنان للمستقبل في طبقات الشعب المصري يدرك مقدار الجرأة التي ابداها سعادته ، وكيف غامر في سلوك هذا السبيل وظهر ولم يبال بأقوال الذين كانوا يحمدون فيه الرجل المثالي العظيم الخيرة والمهندس الواسع الاطلاع

وهناك ناحية أخرى ليست مجهولة في حياة عبود باشا وهي تلك الناحية المتعلقة بوطنيته فقد أقام الدليل على حبه لمصر بما كان يبديه من الاهتمام بشؤونها بما كان ينشر من المقالات في أمهات الصحف الانكليزية ليرد فرية او يظهر حقيقة من حقائق الحالة في مصر . كذلك لا ننسى اقدامه على التبرع لمشروع الدفاع الوطني بمبلغ عشرة آلاف جنيه تلبية لنداء الوطن

ونحن نستطيع ان نستخلص من كل هذه المجهودات وطنية حارة واخلاصاً عملياً منتجاً لمصر . ومافتىء عبود باشا حافظاً لهذه الميزة عاملاً في سكون وهو يعلم انهُ يعمل لأسمى غاية . ونرى ان هذه الشخصية التي انتحت الحياة المادية بجرأة ولم تبال بالمصاعب ستظل دائماً موضوع اعجابنا واعتزازنا بالجيل